المعلّم والنّظريّة الفهلويّة

كثيرًا ما نسمع أنّ فلانًا فهلوي، أو النظريّة الفهلوية. فمن هو هذا الشخص، وما هي هذه النظرية، وكيف أثرت على حياتنا وعلى التعليم في مجتمعنا؟

إذا نظرنا إلى المعنى اللغوي ورجعنا إلى معجم المعاني الجامع نجد أنّ: فهلوي: محتال، ماهر وبارع، شاطر، قادر على التكيّف السريع مع متغيرات المجتمع.

لكن ماذا بالنسبة للنظرية الفهلوية التي نحن بصددها، وما علاقتها بالمعلم والتعليم؟

لقد كان الناقد السوري صادق جلال العظم من أوائل الأشخاص الذين سلّطوا الضوء على هذه الشخصيّة، حيث استطاع من خلال كتابه الشهير "النقد الذاتي بعد الهزيمة" الذي صدر بعد هزيمة 1967 والتي زلزلت الوجدان العربي وتركت بصماتها على كل المثقفين العرب في المشرق والمغرب، حيث استطاع أن يوجّه نقدًا عنيفًا لسلبيات الشخصيّة العربيّة التي أدت إلى الهزيمة.

ويرى العظم أنّ نمط الشخصيّة الفهلويّة سائد في المجتمع العربي، وهو في الغالب يؤدي إلى التخلف الاجتماعي والابتعاد عن التفكير العلمي وهو السبب في الهزائم التي مُني بها العرب على جميع الأصعدة.

ويؤكد العظم (وُلد في دمشق 1934) أنّ الخلل يكمن في الشخصيّة القوميّة للإنسان العربي، حيث ربط المنطق التبريري العربي بنمط من السلوك الاجتماعي أطلق عليه اسم الشخصيّة الفهلويّة.

وهذا النمط هو أنموذج له خصائص وأنماط سلوك وردود فعل ومشاعر وتصرفات معيّنة تميّز الأفراد في بيئات اجتماعيّة معيّنة قد تزيد وقد تنقص من فرد لآخر وفقًا للظروف والأوضاع الاجتماعيّة.

لسنا هنا بصدد تحليل أسباب الهزيمة، إنّما رغبت الاستئناس بتحليلات العظم حول خصائص الشخصيّة الفهلويّة، ومحاولة التذكير بأنّ هذا الأنموذج ما زال حيًا يرزق بيننا في المجتمع العربي.

ولإلقاء الضوء على الموضوع سأورد خصائص النمط الاجتماعي للشخصيّة الفهلويّة، محاولًا ربطها بالشخصيات المسؤولة عن التعليم في مجتمعنا العربي وإعطاء بعض الأمثلة لذلك.

من هذه الخصائص:

1. إزاحة المسؤولية وعدم تحمل تبعات اتخاذ المواقف في الأوقات المناسبة والتهرّب من اتخاذ القرارات والتملّص من المسؤوليّة. وهذا الأمر كثيرًا ما نراه في مدارسنا، حيث نرى المسؤولين أو مديري المدارس يتهرّبون من حل المشاكل أو مواجهتها خوفًا من تبعاتها أو ينتظرون أن تحل لوحدها دون جهد منهم، كذلك المعلم الذي يحاول إزاحة المسؤولية على زملائه، فإذا كان في المرحلة الثانوية فإنه يزيح المسؤولية على المرحلة الاعدادية، واذا كان في المرحلة الإعدادية فانه يزيح المسؤولية على المرحلة الابتدائية، والابتدائية يزيح المسؤولية على الأهل وسوء التربية أو ترد الكرة إلى المرحلة الإعدادية وهكذا.

" يعني بما معناه كله برمي على بعضه ولا أحد يتحمل المسؤولية".

ولا ننسى الأهل في هذه المرحلة حيث ينسبون الفشل وقلة التربية على المدرسة التي لا تقوم بواجباتها تجاه الطلّاب الذين سرعان ما يتركون المدرسة ويصبحون عبئًا على المجتمع الذي يعجز عن التعامل معهم بالطرق التربويّة ويلجأ إلى الطرق التقليدية التي سرعان ما تنتهي بهم إلى السجون.

2. البحث عن أقصر طرق النجاح، لا بل التحايل من أجل الوصول لهدف ما. هكذا يتصرف الطالب الجامعي العربي مثلًا، فلا يجدّ ولا يجتهد ويتكئ على جهود الغير. وهذه الظاهرة منتشرة وبكثرة اليوم خاصة عن طريق استعمال الأكاديميين في المجتمعات الأكاديميّة العربيّة للشبكة العنكبوتيّة.

ناهيك عن تجارة الأبحاث والوظائف، التي أصبحت تجارة رائجة بين أوساط الطلّاب الجامعيين، فاليوم لست بحاجة أن تجلس في المكتبة وتتعب عينيك وتوجع ظهرك، فهناك من يقوم بذلك بدلًا منك مقابل أجر وتسعيرة تعادل معاش شهر متوسط لموظف

بدائرة حكوميّة أو تكون التسعيرة حسب نوع البحث ودرجته، فبحث البكالوريوس يختلف عن بحث الماجستير ناهيك عن بحث الدكتوراه، نعم الدكتوراه.

وإذا كنت طالبًا فقيرًا فإنك تكتفي ببحث تأخذه من الانترنت أو من زميل لك أو قريب سبق ودرس هذا المساق، متأملًا أن تكون ذاكرة المحاضر ضعيفة فلا يتذكر البحث لأنك قمت بتغيير بعض التفاصيل والأسماء، وبدّلت المذكّر والمؤنث أو العكس (كثيرًا ما ينسى الطلّاب ذلك فيقعون بالفخ).

طبعًا هذه الظاهرة لا تتجاوز المعلّمين الذين هم من أكبر المستهلكين لهذه التجارة، فهم لا وقت لديهم للقيام بذلك ولا أعصاب ولا صبر، كما أنّ المال متوفر لديهم، فلا مشكلة إذ قام أحدهم بكتابة بحث هنا وهناك وأراحهم من هذه المهمّة، حيث يريحون ضميرهم أنّ موضوع البحث لا علاقة له بموضوع التدريس الذي يعمل به المعلم في المدرسة، فهو يعلّم الرياضيات بينما البحث بموضوع التّربية لذا فإن ضميره مرتاح من هذه الناحية.

طبعًا لا ننسى تجارة الألقاب العالية بهدف تحسين الدرجة والراتب الشهري، وهنا تتعاون بعض الجامعات والكليات التي تتاجر بهذه الألقاب بطريقة " إدفَع وحمِّل " فكثر حاملو ألقاب الماجستير من بين المعلمين دون أي تقدمٍ في مستواهم التعليمي الأكاديمي. وانحصر التقدم ببعض مئات الشواقل المضافة إلى رواتبهم الشهريّة واعطائهم المقدرة على التقدم لعطاءات الإدارة التي تشترط وجود الماجستير عند المرشّح.

تخيّلوا أيّ معلّم هذا سيكون في المستقبل، وأيّ مدير سينشأ، وأيّ جيل سيتربى ويترعرع عند هذا الطاقم المدجّج بالشهادات الخالي من القدرات والمواهب والمسؤولية والقيم.

3. الاهتمام الزائد بالتقاليد التي تثقل كاهل المجتمع وتحول دون إدخال إصلاحات جذرية فيه. وتفضيل الروابط القِبَليّة والعائليّة على روابط أُخرى.

بحيث نرى في هذه العلاقات خضوعًا تامًا للأب أو زعيم العائلة إلى درجة فقدان الأبناء (الأجيال الشابة والأكاديميين) لشخصياتهم واستقلالهم وانسياقهم شبه الأعمى لهذه التقاليد العقيمة.

كم من مدرسة تُدار بالأساليب العشائرية القِبَليّة الهوجاء ضاربة بعرض الحائط كل النظريات التربويّة العلميّة، وكم من مدير ومعلّم بقي في منصبه لأنه "ابن بلد" أو من العائلة الفلانيّة أو العشيرة الفلانيّة. كم من مشكلة ظُلِمَ بها المعلّم أو الطالب لأن ندّه كان من عائلة قويّة، كم من مدير تم تعيينه لأنه من أكبر عائلات البلد حيث سيوفّر الهدوء والاستقرار للمدرسة ويضبط أمورها، ضاربين بعرض الحائط جهله وعدم معرفته بالأمور التربويّة والإداريّة، والمهم أنه "ماسك المدرسة".

4. الشخص الفهلوي يعرف كل شيء! فعندما يُسأل عن أي موضوع حتى وإن لم تكن له به علاقة لا من بعيد ولا من قريب، تراه يصول ويجول ويُسهب، ويشرح وينظّر حول موضوع لا يفقه فيه شيئًا.

كم من معلّم لدينا في مدارسنا من هذه النوعيّة. هذه النوعيّة ليست جديدة على مجتمعاتنا، يُحكى قديمًا أنّ رجلًا يُدعى ب "دِحْيَة" كان إذا جلس بين الرجال فكأنه العلم إذ يأخذ شكلًا بشريًا! لا تسأله عن شيء إلّا أجابك، عَرِفَ أم لم يعرِف! فضاق به جلّاسه ذِرعًا، واتفقوا يومًا أن يُباغتوه بسؤال ليكشفوا جهله، فتركوه مرةً مسترسلًا في كلامه وسأله أحدهم: ما اسم الذئب الذي أكل سيدنا يوسف ؟!

فإجاب مسرعًا: " اسمه جمجائيل"!

فقالوا له: لكن الذئب لم يأكل يوسف!

فقال: إذًا هذا هو اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف!

الرجال على هيئة " دِحْيَّة " لم يخلُ منهم زمان قط! وإن كانوا في الأزمان الغابرة يُعدّون على الأصابع فهذا زمن " الدِّحيّات "!

فلكل عائلة " دِحيَّتها "ولكل حارة وشركة ومؤسسة ومدرسة " دِحيَّتها ". إذا كان الحديث عن الشعر تحسب أن الفراهيدي قد أخذ عنه، وإذا كان الحديث عن الطّب تخال أنّ جالينوس تلميذه وابن سينا صبيّه الذي يحمل قوارير عقاقيره. إذا كان الحديث عن النحو تحسبه سيبويه قد بُعث من قبره، إذا كان الحديث في التاريخ فكأنه أملى على الطبري كتابه. تحسبه "غوغل" يمشي على الأرض. إذا تحدثنا عن إنتاج روسيا من النفط أشعر أنه من يعبئ البراميل هناك!

وإذا تحدثنا عن إنتاج البرازيل من القهوة أشعر أنهم لا يقطفون حبّة بنّ إلّا بعد الرجوع إليه. وإذا تحدّثنا عن مشاكل الزواج فهو الأبرع في حلّها رغم أنّ زوجته "حردانة" عند أهلها من أسبوعين.

إذا ابتليتم ب " دِحْيَّة " في مدرستكم فلا تحاولوا مناقشته في معلومة خاطئة أدلى بها! لأنه سيأتي بعشر معلومات خاطئة أُخرى ليثبت لك أن معلومته الأولى الخاطئة كانت صحيحة! فخُذ عنه واحترم نفسك. ولا تنسَ أنّ آخر استكمال اشترك به كان قبل عشر سنوات إذ أنه قد أنهى واجبات الاستكمال ووصل إلى الحد الأقصى بها وهذه هي الطامة الكُبرى.

5. من صفات الشخصيّة الفهلويّة الحماس الشديد والاندفاع العنيف والاستهانة بالصعاب في بداية الطريق ثم الهبوط المفاجئ في المهمة والتراخي وانطفاء الحماس والتراجع عندما يتبيّن للفهلوي أنّ الأمر يحتاج إلى الجدّ والمثابرة والعمل المنتظم والنفس الطويل.

وهذا ما نراه في مدارسنا ومع معلّمينا وحتى مع قسم من مديري المدارس. فالمعلّم يبدأ حياته بجدّ وحماس ونشاط ثم يبدأ بالإنطفاء والخفوت، فيكثر غيابه وتذمره من الأوضاع بدءًا بتغير الجيل وانعدام التربية من الآباء والأبناء وانتهاءً بعدم القدرة على التأقلم والتعوّد على متطلبات عمله فيقل تحضيره وتجدد معلوماته ويبدأ بالأفول حتى يصبح عبئًا على المدرسة وطلّابه، ولكنه ما زال صغير السن، لم يبلغ سن التقاعد. فتراه جالسًا يشرب الشاي والقهوة ويندب حظه لكل من يصادفه في غرفة المعلّمين. ناهيك عن بعض مديري المدارس الذين نادرًا ما يغادرون مكاتبهم حتى لو " قامت القيامة " بالخارج فإنه يبقى قابعًا على كرسيه خوفًا من أن يأتي أحدهم ويجلس مكانه. وأسوأ

الأنواع هم الذين يحرمون طلّابهم من البرامج والمشاريع والتحديثات لأنه لا يرغب أن يبذل أدنى جهدٍ أو أن يتأخر عن وقت مغادرته المدرسة كي لا يفوّت وقت مغادرة أبنائه المدرسة أو أن يخسر قيلولته في ساعات الظهيرة.

كم من محاضر يفرض الوظائف والأبحاث والواجبات ولا يقوم بتصحيحها لأنه لا يملك الوقت لذلك، ويقوم بإرجاع الأبحاث وعليها العلامة دون إبداء أي ملاحظة عليها، فيعرف الطلّاب أنه لا يقرأ بل يضع العلامة حسب عدد الصفحات فيشرع الطلّاب بكتابة الأغاني والموشّحات حتى الشتائم عارفين أنه لن يقرأها، ويقومون بفضحه أمام الطلّاب الآخرين وينتقل اسمه من سنة لسنة وهو لا يعلم أنه قد انكشف. وكم من معلّم ذاع صيته أنه يضع نفس الأسئلة كل سنة وأنه يصحّح ويضع العلامة حسب اسم العائلة أو اسم الأب.

وكم من مدير يُطالب المعلّمين بالخطط ولا يقرأها بل تتكدّس لديه قي خزانة مكتبه، ويقوم المعلّمون بكتابة نفس الخطة كل سنة بتغيير التواريخ وهم واثقون أنه لم ولن يقرأها. كذلك يفعل المعلّمون بدفاتر التحضير المفروضة عليهم كنوع من العقاب والسيطرة، فيقومون بالتحضير اوتوماتيكيًا دون وعي أو إدراك لما هو مكتوب فيها فهم يعلمون أنّ المدير لن يقرأها وأنها عقيمة لا فائدة منها.

6. الاستخفاف بالآخرين والتحقير من شأنهم وتأكيد الذات والتركيز عليها وانعدام روح الفريق في العمل. إنّ العمل التربوي في المدارس يحتاج إلى العمل الجماعي المتكاتف لكي نصل إلى النتائج المرجوّة من أجل تنشئة جيل أفضل، جيل المستقبل.

علينا أن نترك الآخرين بحالهم وأن نعزّز زملاءنا وندعمهم، فعندما يركّز الناس على شؤونهم الخاصة ويدعون الناس وشأنهم يُبدعون! وعندما نتوقف عن النظر لما في أيدي الآخرين يصبح لدينا وقت للتفكير بما في أيدينا!

أحيانًا لا نريد من الآخرين سوى أن يدعوننا وشأننا، ولكنهم لا يسمحون لنا بمثل هذا الترف! هناك أشخاص لا يأتيهم النوم إلّا إذا تفقدوا صور الآخرين الشخصية وحالاتهم في الواتساب، كأن أحدهم عمر بن الخطاب لا يقرّ له جفن حتى يطمئن على رعيته.

يقول باولو كويلو (اخترته لأنه محبب على جمهور المعلّمين) في روايته الشهيرة الخيميائي:

عندما تريد شيئًا بشّدة فإنّ العالم كله يتآمر معك لتحقيقه!

وددت لو أن باولو كويلو قال: عندما تريد شيئًا بشدّة وتسعى إليه فإنّ العالم كله يتآمر معك لتحقيقه (بزيادة الفعل تسعى للجملة الأصلية)، فالرغبة في شيء ما لا تكفي للحصول عليه، لا بد أن يشمر المرء ويجدّ، لهذا أجد أفضل وأحكم من قول كويلو هذا قول أحمد شوقي:

وما نيل المطالب بالتمنّي ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

أرجو لكم كل الخير

أ.أيمن جبارة